" الرحمة "

إن الرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ، ويسعى لازالتها ، فإن تبلد الاحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه عطفة الحب والرأفة ، وهى صفة من صفات الله – عز وجل- قال تعالى :﴿...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾[سورة غافر:٧].

وعن " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - قدم على رسول الله- ﷺ- بسبى – يعنى اسرى – فاذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبياً فى السبى ، أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال رسول الله- ﷺ -:" اترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ .

قلنا " لا والله . وهى تقدر على الا تطرحه ! ، قال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها . (١)

وكثرة كاثرة من اسماء الله الحسنى ينبع من معانيها الرحمة والكرم والعفو والفضل ، وقد جاء فى الحديث القدسى"ان رحمتى تغلب غضبى ".(٢) والله-عزوجل-أفضل الرحماء، ورسوله- ﷺ -كذلك قال تعالى:﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[سورة المؤمنون:١١٨].

وقال تعالى في نبيه- ﷺ -:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧]

وقال – ﷺ -:" مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوتداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " .

فأصحاب الرأفة، والرحمة قريبيون من الله - سبحانه وتعالى – أما الجبارون، وقساة القلوب ، وَغُلَّاظ الأكباد ، والكاذبين المستكبرين فهم فى الدرك الأسفل من النار.

وفى الحديث : " إن أبعد الناس من الله تعالى القاسى القلب " (٣) .

وكان رسول الله- ﷺ - يعد جمود العين ، واستغلاق القلب من الشقاء ، وقد أراد الله أن يمن على الإنسانية جمعاء بمن ينصر الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، ويحمل الكل ، ويأسوالجراح ، ويترفق بالأمة فأريل سيدنا محمد- ﷺ - ولذلك قال الله

1- رواه البخارى .
2- رواة مسلم .
3- رواه الترمذى .

obeikandi.com

تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[سورة ال عمران:١٥٩].

وقد لازمته – ﷺ – هذه الخلال العظيمة فى أدلك الظروف ، عندما حاول المشركون اغتياله فى غزوة " أحد " ونظر إلى اصحابه – رضى الله عنهم – وهم مضرجون في دماءهم الذكية ، ويقال له : يا رسول الله ادع على المشركين ، فما كان منه – علية الصلاة والسلام – إلاَّ أن قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

إن القسوة دليل على النقص في الإنسان ، وفي تاريخ الأمم دليل الفساد الخطير ولذلك حذر الإسلام منها ، فقال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الحديد:١٦] .

ونرى الإسلام يأمر المسلمين بالتراحم ، وجعله من دلائل الإيمان الكامل قال رسول الله – ﷺ – لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا : يا رسول الله : كلنا رحيم . قال : " انه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، لكنها رحمة العامة " (١) .

وقال رسول الله – ﷺ –: " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " ، وزاد في روايه أخرى " ومن لا يغفر لا يغفر الله له ، وقال – علية الصلاة والسلام – " من لا يرحم من في الأرض ، لا يرحمه من فى السماء " (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ... أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴾[سورة الفتح:٢٩] .

والإسلام رسالة خير وسلام ، وعطف على البشر أجمعين ، وسور القرآن الكريم جميعاً مُفْتَتِحَة بقوله "بسم الله الرحمن الرحيم" ورحمة الله وسعت كل شيء عدا المشركين، قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ

1- رواه الطبرانى .
2- رواه البخارى .

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٦ :١٥٧].

وقد تأخذ الرحمة طابع القسوة مثل القسوة التى يسلكها المربى مع مريديه وتلامذته ، ومثل الأب مع أولاده فالقسوة هنا تُعَدُ رحمةً بهم ، يقول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

كما أن القصاص في الإسلام يعد رحمةً بالمسلمين ، وحماية لدمائهم وأموالهم حتى لا يطمع فيها طامع ، ولا يتجرأ عليها سفيه ، كما انه حقن للدماء وحفاظ على الأعراض وصون للحرمات ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٧٩] وجاءت كلمة حياة نكرة لتدل على العظمة ، يعنى ولكم فى القصاص حياة عظيمة يا أصحاب العقول فالقسوة التى حرمها الإسلام هى التى لا ترتبط بمنطق ولا عدالة .

قال رسول الله- ﷺ -: " جعل الله الرحمة مائة جزء ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " (١) .

وفي روايه أُخرى : " إن الله تعالى خلق – يوم خلق السماوات والأرض – مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضه على بعض " (٢) .

وعنأبى هريرة - رضى الله عنه – قال : سمعت الصادق المصدوق صاحب هذا القول " ابا القاسم " يقول : " لا تنزع الرحمة إلاَّ من شقى " (٣) .

وبينه الإسلام أن هناك أقواما يستحقون أضعافاً من الرحمة ، وهم ذووا الأرحام، والرحم مشتقة من الرحمة فى مبناها ، فيجب ان تستقيم معها في معناها ، قال رسول الله- ﷺ -: " الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم مشتق من الرحمن ، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله "(٤) .

1- رواه البخارى .
2- رواه مسلم .
3- رواه ابوداود .
4- رواه الترمزى .

والشجنة هى القاربة المشتبكة اشتباك العروق، فواجب على المسلم أن يؤدى حقوق اقربائه ، وذلك بالمودة الدائمة المتواصة ، وأحق الناس بالمودة والرحمة هم الوالدان ، قال تعالى : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [سورة الإسراء:٢٤] ثم الأولاد ، فعن " البراء بن عاذب - رضى الله عنه – قال : "اتى ابوبكر عائشة وقد أصابتها الحُمْى ، فقال : " كيف انت يا بنية وَقَبَلّ خدها [١] .

وعن أبي هريرة كذلك . قال : « قبل رسول الله – ﷺ - الحسن بن علي - رضي الله عنهما - وعنده الأقرع بن حابس .

فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله – ﷺ - ثم قال :" من لا يرحم لا يُرحم " .

وفي رواية أخرى : " أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك [٢].

قال أنس رضى الله عنه دخلنا مع رسول الله– ﷺ - على أبى سيف القين وكان صهراً لابراهيم ولده عليه السلام فاخذ رسول الله ابراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله قال « يا ابن عوف إنها رحمة » ثم اتبعهاأُخرى أى دمعةً أخرى فقال « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وان بفراقك يا ابراهيم لمحزنون »[٣] .

كما تجب الرحمة باليتامى، فإن كفالتهم ، والإحسان إليهم من أذكى القربات، فعن "أبى هريرة "- رضى الله عنه - أن رجلا شكا إلى رسول - ﷺ - قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم ، واطعم المسكين " [٤].

كما تجب الرحمة المرضى ، وأصحاب العاهات ، فلا يجوز لمسلم أن يؤاخذهم بما أعفاهم الله منه ، قال تعالى : ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [سورة الفتح:١٧]

ومن الرحمة أيضا الرفق بالخدم ، قال رسول الله – ﷺ -:- "اخواتكم حولكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم " .

1- رواه البخارى .
2- رواه البخارى .
3- رواه مسلم .
4 - رواه احمد .

obeikandl.com

وعن أنس-رضى الله عنه- قال : خدمت رسول الله- ﷺ - عشر سنين ، فما قال لى لشيء فعلته لما فعلته ، ولا لشيء تركته لما تركته .

وعن أبى مسعود البدرى-رضى الله عنه- :"كنت اضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى: " إعلم أبا مسعود- فلم أفهم الصوت من الغضب – فلما دنا منى إذا هورسول الله- ﷺ - : " فاذا هو يقول : " إعلم ابا مسعود ان الله اقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت : " يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى .

فقال : " اما لوتفعل للفحتك النار " [١] .

وقال رسول الله - ﷺ - حسن الملكة نماء ، وسوء الخلق شئم"[٢] .

وجاءه رجل يسأله:" كم مرة اعفو عن الخدم ، قال - ﷺ -:"كل يوم سبعين مرة "[٣] .

وقال رسول الله- ﷺ -: " من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة " .

ومن الرحمة فى الإسلام الرفق بالحيوان ، فقد رأى " عمر بن الخطاب " – رضى الله عنه – رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال : ويلك قدها للموت قوداً جميلاً ، وقال رجل يا رسول الله: انى لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : " ان رحمتها رحمك الله"[٤]

والدليل على أن الإسلام عرف طريق الرفق بالحيوان قبل الغرب أن يعرفه والشرق، وقبل ان تنشأ المستشفيات والتى تعرف " بالوحدات البيطرية " ويعمل فيها الأطباء المتخصصون ، وقبل ان يعرف العالم " جمعيات الرفق بالحيوان " عرف الإسلام وَعَرّفَ العالم الرحمة والرفق ، والشفقة بالحيوان ، قال رسول الله - ﷺ -: "بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، واذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر فملأ خفه ماءً ، ثم امسكه بِفِيِه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له " .

قالوا :يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا ، قال :" في كل كبد رطبة اجرا " .

وفي روايه : ان امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار ببئر، قد أولج لسانه من العطش فنزعت له موقها – أى خفها – فغر لها به . فإن كانت الرحمة بكلب تغفر الذنوب للبغايا فان الرحمة بالبشر تصنع العجائب .

1- رواه مسلم .
2- رواه البذار .
3- رواه الحاكم .
4- رواه الحاكم .

ويقول الله- عز وجل- : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٨].

يعنى لا تملها عن الحق ، ولا تضلنا بعد ان هديتنا إلى دينك القديم وشرعك المستقيم وامنحنا من فضلك وكرمك رحمة ثبتنا بها على دينك الحق انك انت يارب المتفضل على عبادك بالعطاء والاحسان .

فعباد الرحمن ينادون رحمة الله التى ادركتهم بالهدى بعد الضلال ووهبتهم هذا العطاء الذى لا يعادله عطاء .

وهم يوحى ايمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلاَّ بفضل الله ورحمة ، وانهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله ، فيتجهون اليه بالدعاء ان يمدهم بالعون والنجاة، وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان رسول الله - ﷺ - كثيراً ما يدعو" يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك "، قلت يا رسول الله :ما أكثر ما تدعو بهذا العامة .

فقال : ليس من قلب إلاَّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن اذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه .

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلاَّ أن يلتصق بركن الله ، فلا ملجأ من الله إلاَّ إليه وأن يتوجه إلى الله يناشده رحمته وفضله .

ويقول " القرطبى " : وهب لنا من لدنك رحمة – أى من عندك ، ومن قيلك تفضلاً ، لا عن سبب منا ولا عمل . ومعنى الآية " هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة ، لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

ويقول صاحب اللَّطائف : ما ازدادوا قرباً إلاَّ ازدادوا أدباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب ويقال حين صدقوا في حسن الاستعانة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية . وربما يقصد الأمام " القشيرى " فى لطائفه بهذا القول :انهم ابدا طامعون الهداية ، محتاجون – لا لأعمالهم – بل هم محتاجين لفضل الله ورحمته ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون انهم ما زالوا بعيدين عن التمام وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها " ما ازدادوا قرباً إلاَّ ازدادوا ادبا " .

ويقول صاحب التفسير الكبير : " لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا " يعني لا تمنعها الألطاف التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان ، وذلك لأنه تعالى لما منعهم ألطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال : أزاغهم ويدل على هذا قوله تعالى :﴿.......إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ .... ﴾ [سورة الصف:٥]

وقال الأصمعى : لا تبلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنا فهو كقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [سورة النساء:٦٦]وقال : ﴿......لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ......﴾[سورة الزُّخرُف:٣٣]. والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيغ ، وقد يقول القائل :لا تحملني على إيذائك أي لا تفعل ما أصير عنده مؤذياً لك الثالث : قال الكعبي " لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا "أي لا تسمنا باسم الزائغ ، كما يقال : فلان يكفر فلاناً إذا سماه كافراً ، والرابع : قال الجبائي :أي لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا؛ وقال آخرون : احرسنا من الشيطان ومن شرور أنفسنا حتى لا نزيغ .

ومجمل القول : ان أولئك الراسخون فى العلم مع اعترافهم بالإيمان بالمتشابه يطلعون إلى الله ان يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة ، والاستقامة على الطريق فهم يعرفون ضعف البشر، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فينافون أن يقعوا فى الخطأ ، والخطأ قرين بالخطر.

ويقول الله تعالى فى معنى الرحمة : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [سورة هود:٩].

يعنى اذا انعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة والأمن ، والرزق ، وغيرها من النعم فاذا ما سلبناه تلك النعم فاذا هو بؤس قنوط من رحمة الله .

ومن معانى الرحمة ما يسجله القرآن الكريم فى قوله تعالى :﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾

والمعنى ولئن اعطينا الانسان نوعاً من أنواع النعم كرفاء عيش وبسطة رزق ، وصحة وامن ، وولد بار، رحمة مبتدأة منا اذقناه لذتها فكان شديد الاغتباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله تعالى في الخليقة مثل المرض، والموت والعسر

إنه ليظل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها ، انه يجمع بين اليأس بعودة ما وقع منه والكفر بما يقر له لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر.

و" الاذاقة " هنا معناها الاعطاء القليل .

ومن معانى الرحمة فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه :-﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧].

والمعنى قد ارسل الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - رحمةَ للعالمين من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء .

فالبشرية كلها قد تأرت بالمنهج الذى جاء به طائعة أوكارهة ، شاعرة أو غير شاعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد ان يستظل بها ويستروح فيها نسائم السماء الرضية في هجير الأرض المحرقة وبخاصة فى هذه الأيام التى تهب علينا فيها الأعاصير الهوجاء حاملة تيارات الغزو الفكرى ، والثقافى من الشرق والغرب مستهدفة اسلامنا ، ونبينا ، وكتابنا ، وليس أدل على ذلك من الهجمات الشرسة العدوانية التى تشنها هذه البلاد مثل " الدنمارك " حيث شنت هجوماً عنيفا وقاسياً على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - كما هاجمت الإسلام في حملة شرسة ، ورسومات " كاريكاتيرية " تصف الإسلام بأنه دين الارهاب ، بينما الإسلام هو دين العدالة ، ودين الرفق ، ودين الرحمة بين جميع الناس ، ولكل العالمين .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧]. وان إنسانية اليوم في مسيس الحاجة إلى هذه الرحمة ، والتراحم فيما بينها ، خاصة ذلم العَالَمْ الشارد في متاهات المادة ، ونار الحروب ، وجفاف الأرواح ، وقسوة القلوب .

ويمضى القرآن في الحث على الأخلاق الفضيلة ، والخِلاَل العظيمة والخصال الحميدة فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١ ﴾ [سورة التوبة:٦١].

كان المنافقون أو جماعة منهم يؤذون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعيبونه ويقولون هو "اذن سامعه " أى يسمع من كل احد ما يقوله ، وَيَقْبَلَهَ ويصدقه ، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب ، سريع الاغترار بكل مايسمع دون أن يتدبر فيه ، ويميز بين ما هوجدير بالقبول لوجود أمارات الصدق فيه ، وما لا ينبغى قبوله وهذا عيب في الملوك والرؤساء لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وأبعاد الناصحين ، وإنما قالوا ذلك لأنه كان- عليه الصلاة والسلام – يعاملهم باحكام الشريعة ، كما يعامل عامة المؤمنين بالبناء على الظاهر، فظنوا انه يصدق كل ما يقال له فيقول لهم القرآن : نعم انه أُذن ، ولكنه نعم الأُذن لأنه أُذن خير لا كما تزعمون ، فهو لا يقبل مما يسمعه إلاَّ ما يعتقد انه الحق ، وما فيه مصلحة الخلق ، وليس باذن في سماع الباطل مثل الكذب ، والنميمة ، والجدل ، والمراء واذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ، ولا يصدقه ما لا يجوز تصديقه ، كما هوشأن الملوك

والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء ، وذلك بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم ، وحملهم على إيذاء من يبتغون ايذاءه،ثم يُبّين الله– عز وجل – المراد من أُذن الخير فقال يصدق بالله ، وبما يوحى اليه مما فيه خيركم وخير غيركم ويصدق المؤمنين الصادقى الإيمان من المهاجرين والأنصار– رضى الله عنهم – وذلك لما علمهم من ثبات العقيدة ، وصدق ايمانهم الذى يحتم عليهم أن يصدقوا النبى – ﷺ – فيما يحدثوه به ، كما أنه رحمة للذين آمنوا منكم ، إيمانا صحيحاً ، صادقاً إذ كان سبب هدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وليس من أظهر الإسلام وأبطن الكفر نفاقا إذ هو نقمة عليه في الدارين .

ومن الرحمة أيضا قوله تعالى :- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الروم:٢١]

والمعنى ومن آياته الباهرة ، الدالة على عظمته ، وكمال قدرتة أن خلق أصلكم وهوآدم – عليه السلام – من تراب ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ، إلى بشر عقلاء تتصرفون فيما هوقوام معايشكم .

ويقول"ابن كثير":فسبحان من خلقهم وسيرهم وسخرهم ، وصرفهم في فتون المعايش والمكاسب،وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحَسِن والقَبِيح ، والغنى والفقير والسعادة والشقاوة .كما أن آياته العظيمة أن خلق لكم من جنس آخر يقول " ابن كثير " :

ولو أنه تعالى جعل الإنسان من جنس آخر ، من جان أوحيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة وذلك من تمام رحمته ببنى آدم ، لتميلوا إليهن ، وتألفوهن .

وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة ، يقول " ابن عباس " : – رضى الله عنهما – المودة هى " حب الرجل امرأته ، والرحمة هى شفقته عليها ألاَّ يصيبها بسوء، أما فيما ذكر لعبد عظيم لقوم يتفكرون فى قدرة الله وعظمته فيدركون حكمته العليا . ومن معانى الرحمة في القرآن الكريم قوله تعالى : -﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات:١٠]

يعنى ليس المؤمنون إلاَّ إخوه تجمعهم رابطة الإيمان ، فلا ينبغى أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء ، ولا بغضاء ، ولا تقاتل ، والتعبير بلفظه " إنما "هنا للحصر، فكأنه يقول : " لا أخوه إلاَّ بين المؤمنين ، ولا أخوه بين مؤمن وكافر" ، وفي الآية إشارة إلى أن أخوه

الإسلام أقوى من أخوه النسب ، ودليل ذلك أن النبى- ﷺ - نسب " سلمان الفارسى " إلى آل بيته فقال – علية الصلاة والسلام – " سلمان من آل البيت " ولم ينسب عمه " ابا لهب " وقد قال شاعرهم :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وحط بالشرك النسيب ابولهب

فأخوة النسب لا يُعْبَأ بها إذا خلت عن عن أخوة الإسلام ، فأصلحوا بين إخواتكم المؤمنين ، ولا تتركوا الفرقة تدب ، والبغضاء تعمل عملها ، واتقوا الله تعالى بإمتثال أوامره، وإجتناب نواهيه ، لتعمكم الرحمة ، وتنالكم المغفرة وتسعدوا بجنات عرضها السماوات والأرض ، كما أنكم تسعدون بمرضات الله – عز وجل – .

ويمضى القرآن الكريم في توجيهاته الراشدة ، وحكمه العالية وإرشاداته النافعة المبنية على الرحمة والمودة والصفاء ، فيقول تعالى : -﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الحديد:٢٧].

والمعنى ثم اتبعنا بعدهم برسلنا الكرام ، أرسلناهم رسولاً بعد رسول موسى، إلياس، يونس ...

وغيرهم وجعلناه بعد اؤلئك الرسل لأنه كان آخر الأنبياء من بنى إسرائيل يعنى سيدنا عيسى- عليه السلام- وأنزلنا عليه الانجيل الذى فيه البشارة بـ " محمد " - ﷺ - وجعلنا فى قلوب أتباعه الحواريين الشفقة والرحمة والرأفة ، واللين .

يقول صاحب التسهيل :" هذا ثناء من الله عليهم بتحيتهم بعضهم في بعض ، كما وصف تعالى أصحاب محمد - ﷺ - بأنهم " رحماء بينهم " أما الرهبانية التى ابتدعها القسس والرهبان وأحرثوها من تلقاء أنفسهم ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها .

يقول " أبوحيان " : والرهبانية هى رفض النساء ، وشهوات الدنيا واتخاذ الصوامع، وقد أحدثوها من عند أنفسهم ، وما كتبناها عليهم ، وما أمرناهم الا بما يرضى الله ، والاستثناء هنا منقطع ، والمعنى وما كتبنا عليهم الرهبانية ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله فما قاموا بها حق القيام ولا حافظوا عليها كما ينبغى .

يقول "ابن كثير":- وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله والثانى في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله – عز وجل – .

وفي الحديث " لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتى الجهاد في سبيل الله" فأعطينا

الصالحين من أتباع عيسى- عليه السلام- الذين يثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد- ﷺ - ثوابهم مضاعفاً ، وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة ، منتهكون لمحارم الله مثل قوله تعالى :﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة التوبة:٣٤] ومن بين الآيات القرآنية الكريمة التى تحض على الأخلاق المتمثلة في الرحمة قول الحق -سبحانه وتعالى:﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ [سورة البلد:١٧] والمعنى ثم كان من الذين عملوا هذه القربات لوجه الله تعالى ، وكان مع ذلك مؤمنا صادق الإيمان ، وفي الآية إشارة إلى أن هذه القرب والطاعات لا تنفع الا مع الإيمان وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان ، وطاعة الرحمن وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله " و" ثم " هنا ليست للتراضى الزمنى وإنما للتراضى المعنوى ، باعتيار هذه الخطوة هى الأشمل والأوسع نطاقاً ، والأعلى أُفقاً ، والا فما ينفع فك رقاب ، ولا إطعام طعام بلا إيمان ، فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب ، وإطعام الطعام ، وهوالذى يجعل للعمل الصالح وزناً في ميزان الله ، لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضيةً لمزاج متقلب ، أو ابتغاء مَحْمَدَةٍ من البيئة أومصلحة .(١)

1- التفسير .

- مختصر ابن كثير جـ٣ ، ص ٥٢ الكبير للرازى ، ص ٢٠ ، ص ١٧٥.
- القرطبى جـ ١٠ ، ص ٢٥٢ .
- الطبرى جـ ٢١ ، ص ٢٢٢.
- البحر المحيط جـ٧ ، ص ١٦٨.
- الكشاف جـ٣ ، ص ٤٣٠ .
- زاد المسير جـ٦ ، ٣٩٣.
- حاشية الصاوى ، جـ٣ ، ص ٢٨١.
- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ١٤٦ وما بعدها ، جـ ١ ، ص ١٠٢ و ما بعدها .
- صفوة التفاسير .
- الجلالين جـ ٤ ، ص ١٧٦.
- البيضاوى جـ٣ ، ص ١٤٦.
- تفسير ابن كثير .
- روح المعانى للالوسى .
- فى ظلال القرآن جـ٥،ص٢٤٠٢ وما بعدها.جـ١، ص ٣٧٠ وما بعدها.وجـ٦،ص٣٩١٣ وما بعدها
- مفاتيح الغيب جـ ٤ . ص ٩٩ وما بعدها .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

وكما قال سبحانه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: من ١٣-١٧]

فَثُم هنا لإفادة معنى الفضل والعفو. والصبر هوالعنصر الضرورى للإيمان بصفة عامة ، ولإقتحام العقبة بصفة خاصة ، والتواصى به يعزز درجة الصبر ذاته وهى درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر وتعاونها على تكاليف الإيمان . فهى أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض ، وحمل تكاليفه فيوصى بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ، ويقوى بعضها بعضا فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردى وإن يكن قائما على الصبر الفردى ، وهوإيحاء بواجب المؤمن فى الجماعة المؤمنة ، وهو ألا يكون عنصر تخذيل ، بل عنصر تثبيت ، و لا يكون داعية هزيمة ، بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع ، بل مهبط طمأنينة . وكذلك التواصى بالمرحمة ، فهوأمر زائد على الرحمة إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصى به والتحاض عليه ، واتخاذه واجباً جماعياً فرديا في الوقت ذاته يتعارف عليه ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه وهو المعنى الذى يبرزه القرآن الكريم ، كما تبرزه أحاديث رسول الله - ﷺ - .

لأهميته فى تحقيق حقيقة هذا الدين ، فهودين جماعة ، ومنهج أمة مع وضوح التبعة الفردية ، والحساب الفردى فيه وضوحاً كاملاً . أولئك أصحاب الذين يقتحمون العقبة ، كما وصفها القرآن وحدودها " أولئك أصحاب الميمنة "وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أُخرى ، أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة ، وكلا المَعْنَيَين متصل في المفهوم الايمانى .

ومجمل القول أن الإسلام يأمر بالرحمة ، والتراحم ، وهو خلق القرآن الكريم الذى يوجه المسلمين إلى التراحم فيما بينهم فالرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ، ويسعى لإزالتها ، ولاييأس لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى ، هى كمال في الطبيعة حيث إن تبلد الإحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، ويسلبه أفضل ما فيه وهوالعاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة ، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه ، ومن ثم كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم ، بل إلى منازل الجماد الذى لا يعى ولا يهتز.

ولقد وصف أمير الشعراء " احمد شوقى " رسول الله - ﷺ - بالرحمة فقال :

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هم الرحُماء

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة الكهف:١٠]

والمعنى واذكر حين لجأ الشبان إلى الغار وجعلوه مأواهم فقالوا ربنا أعطنا من خزائن رحمتك مغفرة ورزقا وأصلح أمرنا وأجعلنا من الراشدين المهتدين .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الكهف:١٦]

يعنى وإذا اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان فالتجؤا إلى الكهف يبسط لكم ربكم ويوسع عليكم رحمته ويسهل عليكم أسباب الرزق وما تحتاجون إليه من غِداء وعشاء فى الغار.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الكهف:٥٨]

والمعنى ، وربك يا محمد- ﷺ - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم وتمردهم ولو أنه يعاقبهم بما اجترحوا من سيئات ، وارتكبوا من مناكر لعجل لهم العذاب في الدنيا ولكنه- سبحانه وتعالى- يؤخرهم عنهم العذاب الذى يستعجلونه به رحمة بهم وقد جرت سُنة الله تعالى أن يمهل الظالم لكنه لا يهمله ، حيث إن لهم وعداً آخر في القيامة يرون فيه الاهوال ولن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى .

ويقول- سبحانه وتعالى- : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الكهف:٨٢]

والمعنى ، وأما الجدار الذى بنته دون أجر قد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لفلاحين يتيمين فى المدينة وكان أبوهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح أبيهما وقيل أنه الأب السابع وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح . فأراد الله أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما ما فعلت ذلك عن أمرى أى من أمرى ومن تلقاء نفسى بل هو بأمر الله وإلهامه .

ويمضى القرآن الكريم في الحث على الأخلاق الفاضلة ، والتمسك بها والسير على منوالها كى يسعد المسلم في دنياه ، ويفوز بالجنة في أُخراه فيقول الحق- سبحانه

وتعالى :-﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٤٧]

وهنا تتكشف سِمَة من سمات بنى إسرائيل ، فقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه ، فلما جاءهم من يقاتلون تحت لوائه نكصوا على أعقابهم ، وجادلوا في اختيار الله لهم ، واستكبروا أن يكون طالوت الذى بعثه الله لهم مَلكاً عليهم ، لأنهم يرون أنهم أحق بالملك منه بالوراثة ، فلم يكن من نسل الملوك فيهم ، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضى عن أحقية الوراثة ، وكل هذا غبش فى التصور ، كما أنه من سمات بنى اسرائيل المعروفة . ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقية الذاتية ، وعن حكمة الله في اختياره فقال: " .... إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ...." [سورة البقرة:٢٤٧]

إنه رجل قد اختاره الله وزاده بَسطةً فى العلم والجسم ، والله يؤتى مُلكة من يشاء ، فهوملكه وهوصاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء والله واسع عليم ، ليس لفضله خازن ، وليس لعطائه حد ، وهوالذى يعلم الخير ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها . وهى أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش ، وأن تجلوعنه الغبش ، بيد أن طبيعة بنى اسرائيل ونبيها يعرفها لا يمكن أن تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها ، وهم مقبلون على معركة ولابد لهم من أمر خارق للعادة ، وظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين . ولما أعترض بنو اسرائيل على رياسة وإمارة طالوت يبين الله تعالى لهم أن السبب في اختياره هو:

أولا : العلم ، ليتمكن بوساطته من معرفة أمور السياسة .

ثانيـا : قوة البدن ، وذلك ليعظم خطره في القلوب ، ويكون في وسعه ومكنته مقاومة الأعداء ، ومكابدة الشدائد . وقد خصه الله – سبحانه وتعالى – منهما بحظ وافر.

يقول " ابن كثير" : - رحمه الله تعالى – " ومن هنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة شديدة في بدنه ونفسة ، والله يعطى الملك لمن يشاء من عباده من غير إرث أومال ، والله واسع الفضل ، عليم من هو أهل فيعطيه إياه ولذلك لما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله له أجابهم الله تعالى إلى ذلك فقال – سبحانه وتعالى :-

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٨]

فعلامة اختياره عليكم هو أن يرد الله إليكم التابوت الذى أخذ منكم ويقول " الزمخشرى " :- هوصندوق التوراة الذى كان موسى – عليه السلام – إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بنى اسرائيل ولا يفروا" . ففى التابوت السكون والطمأنينة ، والوقار ، وفيه أيضاً بقيةً من آثار آل موسى وهارون وهى " عصا موسى وثيلبهم ، وبعض الألواح التى كتب فيها " التوراة " تحملة الملائكة .

يقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما :-" جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون .

إن في هذا الأمر وهو نزول التابوت بين يدى " طالوت " لعلامة وأمارة ودليل واضح جلى على أن الله – سبحانه وتعالى – اختاره ليكون ملكاً عليهم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر. ويقول صاحب لطائف الاشارات إنهم نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له ، فبين لهم أن الفضيله باختيار الحق ، وأنه وإن عدم المال فقد زاده الله علما ففضلكم بعلمه وجسمه ، وقيل : أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرد عظيم البنية فإن في المثل " فلان اسم بلا جسم " يعنى " ذكر بلا معنى وأن الله تعالى إذا أظهر نوراً أمده يتأييد من قِبَلِهِ ، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الداله على صدق قول نبيهم فى اختياره فرد عليهم التابوت الذى فيه السكينة ، فاتضحت لهم آية ملكه وأن نبيهم – عليه السلام – صدقهم فيما أخبرهم . ويقول الأستاذ " أحمد مصطفى المراغى " في تفسيره المعروف : " روى في أخبار بنى اسرائيل أن الاسرائليين في الزمن الذى بعث فيه " صموئيل " نبياً لهم ، كانوا قد انحرفوا عن شريعتهم ، وعبدوا الأصنام والأوثان وضعفت فيهم الرابطة الدينية ، فسلط الله عليهم أهل فلسطين ، فأنتخثوهم وقتلوا منهم العدد الكثير، وأخذوا تابوت عهد الرب ، وكانوا من قبل يستفتحون به ، يعنى " يطلبون الفتح والنصر به " على أعدائهم ففترت همتهم ، واستكانوا وذلوا ، ولم يكن لهم إلى ذلك العهد ملوك بل رؤساؤهم وقضاتهم رجال الدين ، ومن بينهم أنبياؤهم ومن هؤلاء " صموئيل " فقد كان قاضياً ، ولما كبرت سنه جعل بينه قضاة ، فكانوا قضاة الجور، وأكلة " الرشا " فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل الذين عبر عنهم القرآن " بالملأ " وطلبوا من " صموئيل " أن

يختار لهم ملكاً يحكم فيهم كبقية الشعوب الأخرى ، فحذرهم ، وأنذرهم ظلم الملوك ، واستعبادهم للامم فألحوا ، فألهمه الله أن يختار لهم " شاول " ملكا ، فقالوا : كيف يملك علينا ، وهولا يستحق هذا التملك ؟ لأنه هناك من هوأحق به منه ، ولأنه لا يوجد لديه ما يتوقف عليه الملك وهم " المال " ولأنه ليس من سلائل الملوك ، ولا من سلائل النبوة ، وقد كان الملك في سبط " يهوذا ابن يعقوب "لا يتجاوزه إلى غيره ومنهم " داود وسليمان " – عليهما السلام – وكانت النبوة في سبط " لآل بن يعقوب " ومنه " موسى وهارون " وقد جرت العادة عند الناس أن الملك لابد أن يكون وارثاً للملك أو ذا نسب شريف يسهل على عظماء الناس أن يخضعوا له ، أن يكون ذا مال كثير يدير به الملك ، ولا يأبهون بمعارفه وصفاته الذاتية وفضائله وأخلاقه. من أجل هذا بين الله فيما حكاه عن نبيه خطأ هؤلاء القوم في زعمهم أن الملك لا يستحق إلا بالنسب ، وسعة المال فقال تعالى:-﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٨]

يعنى إن الله اختاره ملكا عليكم لما فيه من المزايا الآتية :-

أولا : الاستعداد الفطرى ، وهوفى المنزلة الأولى من الأهمية ومن ثم قدمه .

ثانيـــا : السِعَه فى العلم الذى يكون به التدبير ، ومعرفة مواطن ضعف الأُمة وقوتها ، وجودة الفكر فى تدبير شؤونها .

ثالثا : بسطة الجسم ، وكمال قواه المستلزمة لصحة الفكر ، فقد جاء في أمثالهم " العقل السليم فى الجسم السليم " وللشجاعة، القدرة على المدافعة والهيبة والوقار.

رابعـــا : توفيق الله تعالى له بتسخير الأسباب التى لا عمل له فيها وهذا ما عناه – سبحانه وتعالى - بقوله " والله يؤتى ملكه من يشاء " أما المال فليس بلازم في تأسيس الملك ، لأنه متى وجدت الأسباب سهل على صاحبها إيجاد المال اللازم لتدبير الملك ، فكم في الناس من أسس دولة وهو فقير أُمى ، وكان استعداده ومعرفته بحال الأمة التى سادها كافياً في الاستيلاء عليها ، واستعانته بأهل العلم والشجاعة كافياً في تمكين سلطته فيها . " والله واسع عليم " أى والله واسع التصرف والقدرة ، إذا شاء أمراً اقتضته حكمته في نظام الخليفة فإنه يقع لا محالة ، عليم بوجود الحكمة فهو يضع لهم مِنَ السُنَن والنظم ما هوفى منتهى الإبداع والإتقان ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .

هذه هى الأخلاق في القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلوأن الناس تمسكوا بإسلامهم وسنة نبيهم ، وقرآن ربهم لسعدوا في الحياة الدنيا ، وفازوا برضوان الله تعالى في الدار الآخرة (1).

ومن الأخلاق في القرآن الكريم،ما تقصه علينا هذه الآية وهى قوله تعالى : ﴿.....وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٨]

يقول " الامام القرطبى ":-

" وهب لنا من عندك ، ومن قبلك تفضلاً عن سبب منا ، ولا عمل وفى هذا إستسلام وتطارح ، يعنى وهب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة لأن الرحمة راجعه إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

وفي الكشاف " وهب لنا من لدنك رحمة يعنى وأعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغى مقدم على تنويرة بما ينبغى فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولاً ألا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل ، والعقائد الفاسدة ، ثم إنهم أتبعوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضاءهم بزينه الطاعة ، وإنما قال " **رَحْمَةً** " ليكون ذلك شاملاً لجميع أنواع الرحمة ، فأولها أن يحصل فى القلب نور الإيمان ، والتوحيد والمعرفة .

وثانيها : أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة ، والعبودية والخدمة .

وثالثها : أن يحصل في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية .

ورابعها : أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت .

وخامسها : أن يحصل في القبر سهولة السؤال وسهولة ظلمة القبر.

وسادسها : أن يحصل في القيامة سهولة العقاب ، والخطاب وغفران السيئات وترجيح الحسنات بقوله تعالى : " **مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً** " يتناول جميع هذه الأقسام ولما ثبت بالبراهين الباهرة ، الكاهرة أنه لا رحيم إلا هو ولا كريم إلاَّ هو لا جرم أكد ذلك بقوله تعالى : " **مِن لَّدُنكَ** " تنبيها للعقل والقلب والروح على أن المقصود لا يحصل الا منه سبحانه ، ولما كان هذا المطلوب في غاية العظمة بالنسبة إلى العبد لا

1- تفسير المراغى جـ ١ ، ص ٢١٤ إلى ص .٢١٨

- لطائف الاشارات للقشيرى جأ ١ ، ص ١٩١ ، ص ١٩٢ .
- فى ظلال القرآن جـ ١ ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٨ .
- القرطبى جـ ٣ ، ص ٢٤٥ .
- مختصر ابن كثير جـ ١ ، ص ٢٣٤ .
- تفسير القرطبى جـ ٢ ، ص ١٠٥٥ إلى ص ١٠٥٨ .

جرم ذكرها على سبيل التنكير، كأنه يقول " أطلب رحمة وآية رحمة ، أطلب رحمة من لدنك ، وتليق بك وذلك يوجب غاية العظمة ، ثم يقول تعالى: " **إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** "كأن العبد يقول : "إلهى هذا الذى طلبته منك فى هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى كمال كرمك وغاية جودك ورحمتك ، فأنت الوهاب الذى من هبتك حصلت حقائق الاشياء وأدواتها ، وماهياتها ، ووجودها ، فكل ما من سواك فمن جودك ، واحسانك وكرمك ، يا دائم المعروف ويا قديم الإحسان لا تخيب رجاء هذا المسكين ، ولا ترد دعاءه ، واجعله بفضلك أهلا لرحمتك يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين .

obeikandl.com